مدينة على الحافة تبحث عن نفسها بعد الفيضان

(مراسلنا/ أيمن عبد الحكيم البيطار)

ـ تقرير من داخل المدينة المنكوبة ـ

بعد أربعة أسابيع من انحسار مياه النهر عن شوارع مدينة الحافة، ما زالت الأسئلة أكثر من الإجابات. فالفيضان الذي بلغ ارتفاعه 6.1 أمتار فوق المنسوب الآمن، وغمر ثلث المدينة تقريباً، لم يترك وراءه دماراً فحسب، بل ترك سكانها في حالة من الحيرة: هل يعودون إلى بيوتهم المتضررة، أم يرحلون إلى مكان لا يذكّرهم كل صباح بما فقدوا؟

وتشير الأرقام الرسمية التي أعلنها مجلس الحافة المحلي إلى أن 19.1 ألف أسرة تأثرت بشكل مباشر، وأن 3 آلاف منزل على الأقل تحتاج إلى إعادة بناء كاملة. وقد قدّرت الخسائر الأولية بنحو 2.6 مليار دينار، من دون احتساب الخسائر غير المباشرة التي تتعلق بتوقف الأعمال والزراعة. وحتى الآن، لم يتسلم سوى 11.8% من المتضررين الدفعة الأولى من التعويضات.

في حي المرفأ القديم، الذي كان من أكثر الأحياء حيوية في المدينة، تقف المقاهي مغلقة والمحلات بلا زبائن. يقول أبو سليم الدباغ، الذي يملك مخبزاً توارثه عن أبيه، وهو يشير إلى الطين الذي ما زال يغطي الجدران حتى ارتفاع متر ونصف: «خسرت الفرن والعجين والمخزون، لكن الأصعب أنني خسرت الزبائن. كيف أطلب منهم أن يعودوا إلى حي لا يوجد فيه ماء ولا كهرباء؟»

وتعمل فرق الإغاثة على توزيع المياه الصالحة للشرب عبر صهاريج متنقلة، بينما أعادت شركة الكهرباء الوطنية تشغيل 64% من الشبكة حتى الآن. غير أن شبكة الصرف الصحي ما تزال متضررة في أكثر من نصف أحيائها، ما يهدد بانتشار الأمراض المعدية مع ارتفاع درجات الحرارة. وقد سجلت مراكز الرعاية الصحية في المدينة أكثر من 4 آلاف حالة إسهال وطفح جلدي خلال الأسابيع الثلاثة الأولى بعد الفيضان.

ويرى مراقبون أن الأزمة الحقيقية لا تكمن في الأرقام وحدها، بل في غياب رؤية واضحة لما بعد الكارثة. فالخطة الرئيسية للمدينة، التي أُقرّت عام 2019، لم تُحدَّث منذ ذلك الحين، ولم تأخذ في الاعتبار احتمال تكرار الفيضان بهذا الحجم. وتقول الدكتورة هالة منصور الزيدان، أستاذة التخطيط العمراني في جامعة الحافة: «نحن نعيد البناء على الأرض نفسها التي غرقت، وكأننا نتوقع أن الماء لن يعود. هذا وحده يكفي لنسأل: هل نحن نبني مدينة أم نؤجل كارثة؟»

في المقابل، يطالب عدد من السكان بإعادة بناء المدينة في مكانها، معتبرين أن الانتقال إلى أرض جديدة سيعني فقدان الذاكرة والروابط الاجتماعية التي تشكلت على مدى أجيال. وبين هذا الخيار وذاك، يقف مجلس المدينة أمام اختبار صعب، وسكان يريدون أن يعرفوا قبل أن يقرروا: هل سيكون هناك مكان لهم في مدينة ما بعد الغرق؟